المثل القرآني.. والبناء

« ١ »

جرى القرآن الكريم على استخدام المثل في معرض بناء الإنسان على العقيدة وتمثُّل الحقائق التي جاءت بها رسالة الإسلام، ويقوم المثل على تقريب الأمر المعنوي إلى الإدراك: بأمر مادي يحسُّه القارئ أو السامع فيكون ذلك أعون على فهم المراد.

والناظر في معالم الكتاب العزيز يجد عدداً كبيراً من الأمثال التي يحسُّ من خلال عرضها وكيف تخرج بالمرء من ساحة الإبهام إلى ساحة الوضوح، صورة من صور الإعجاز في هذا الكتاب الذي قال اللَّه تعالى في شأنه: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[الإسراء: ١٤٦].

انظر إليه ـ على سبيل المثال ـ وهو يقرب عقيدة التوحيد إلى الأذهان وينفي عقيدة التثليث وألوهية عيسى عليه السلام، كيف يذهب بالإنسان إلى خلق آدم عليه السلام، وأن عيسى وآدم في ذلك سواء، فكيف يكون عيسى معبوداً وهو عبد مخلوق؟! وإذا كان قد ولد من غير أب فهي قدرة اللَّه تعالى التي خلقت آدم من طين ذلكم قوله تعالى في سورة آل عمران:﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[آل عمران: ٥٩].

وفي قضية اعتقادية لا بد أن تأخذ مكانها في البنية الفكرية للمسلم، وهي أن اللَّه نور السماوات والأرض، به قوامها وضياؤها، وصفة هذا النور في قلب المؤمن: نقرأ في سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾[النور: ٣٥].

وفي تنمية لاعتزاز المؤمن بإيمانه، وأن ما هو عليه منتهى الفكر الصائب، وأن الذين اتخذوا من دون اللَّه أصناماً يرجون نفعها: مثلُهم في ضعف العقل وتفاهة الفكر وانهدام النفع فيما يسلكون: كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً لنفسها تأوي إليه وهو بيت لا أضعف منه، فهو لا يدفع عنها حراً ولا برداً، وكذلك الأوثان لا تنفع عابديها.. في هذا المجال من تنمية هذا الاعتزاز الذي ينعكس على حركة المؤمن لنفسه وللمجتمع طمأنينة ومزيداً من الثقة: يقول اللَّه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[العنكبوت: ٤١].

أرأيت إلى قوله ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾كم اتخذ المعرضون عن الدين الصادّون عن سبيل اللَّه ـ ويتخذون في تقليد الأعداء ـ بيوتاً مثل بيت العنكبوت، فكان ذلك دليل الجهل والحيرة. إن ضرب المثل قصة كبرى على طريق التربية والإعداد وتنمية المعرفة والإدراك، ومعلم قرآني يضيء طريق العاملين البناة والعاقبة للمتقين.

البناء وبيت العنكبوت.. في المثل القرآني

«٢»

كانت لنا من قريب إلماحة إلى بعض الأمثال في القرآن الكريم، تبينا من خلالها أن ضرب المثل في هذا الكتاب العزيز، واحد من المعالم النيرة على طريق الهداية، في إعداد المسلم، وبنائه على قاعدة من الرسوخ في عقيدته وفكره، وتنمية اعتزازه بدينه، وثقته بأن ما أكرمه اللّه به من الإيمان والالتزام بالمنهج: هو الحق الذي لا يعكر صفوه شيء من الباطل.

وما من ريب في أن هذه القضية ذات ارتباط بعملية البناء التي يجند الإسلام أبناءه لها، عملية البناء التي تتسم بالإحاطة وسلامة الهدف، والعناية بالوسائل والأخذ بالأسباب التي تتسق مع الهدف.

نقول ذلك لأن طمأنينة الفرد المسلم بعقيدته الربانية ومنهجه الذي يسلكه، يبعث في نفسه عوامل الاندفاع الذاتي، وينمي تلك الحوافز التي تفقدها الأمة عند أولئك القلقين المصابين بتمزق الفكر، واهتزاز الثقة بالغاية والوسيلة جميعاً.

وكلما تفاقمت مسؤولية التغيير إلى ما هو الأفضل، كان قطع المسافة بين الواقع وما يجب أن يكون بحاجة أكثر إلى الفرد الواثق المطمئن، والجماعة التي استقام عودها الطريق الموصل إلى الهدف بإذن اللّه.

وفي لمسة من لمسات الإعجاز القرآني يشهد المرء ـ دائماً ـ ويوماً بعد يوم ـ الوقائع التي تزيد المؤمن يقيناً بما دلت عليه معالم الكتاب العزيز. وقد أشرنا من قريب إلى صنيع أولئك المعرضين عن الدين كيف اتخذوا في تقليد أعداء اللّه وحسن الظن بهم وبفكرهم الغازي بيوتاً مثل بيت العنكبوت وإن أوهى البيوت لبيت

العنكبوت. فكما أن بيت العنكبوت لا يدفع حراً ولا برداً ولا يقي من أي عارض، كذلك الفكر الغازي والمبادئ المستوردة تثبت الوقائع يوماً بعد يوم أنها ليست في مصلحة الإنسان، ولا في ساحة الحق، وأنها بمنأى عن كل القيم المدّعاة.

حقاً إن أوهى البيوت لبيت العنكبوت، وإن ما يجري اليوم على الساحة في العالم الإسلامي ـ بوجه عام ـ وفي بعض أقطاره ـ على وجه الخصوص ـ لأكد دليل على أن الإعراض عن حقائق الإسلام في عقيدته وما شرع للناس في فكرهم وسياستهم واقتصادهم روابطهم الاجتماعية والأخلاقية واستبداله مناهج الآخرين وأنظمتهم بهذه الحقائق: هو اتخاذ بيت مثل بيت العنكبوت.

ولكن أين أين الذين يعلمون فينصفون، ليدركوا بعد انتكاس التجارب ومرارة الواقع ما يجب أن يدركوه.

ومن هنا كان من الضرورة بمكان تعميق المفهومات الإسلامية على طريق البناء ورصد الوقائع التي تدل على أحقية تلك المفهومات، وأن الاجتهاد السليم لا يعجز عن تقديم البدائل عما يقلَّد تقليداً لا هوادة فيه!

المثل القرآني.. والبناء «لو كانوا يعلمون»

«٣»

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ما ختمت به الآية الحادية والأربعون من سورة «العنكبوت» حين مثّل القرآن لأولئك الذين يتخذون من دون اللّه أصناماً لا تضر ولا تنفع، بالعنكبوت التي اتخذت بيتاً، وإن أوهى البيوت لبيت العنكبوت، فهو لا يدفع حراً ولا يقي برداً ولا يحجز عن عارض أرضي أو سماوي.

إن هذا البيت وهو أوهى البيوت لا يدفع ولا ينفع، فكذلك الأصنام التي يتخذها هؤلاء المشركون لا تغني عنهم شيئاً فلا تجلب لهم منفعة ولا تدفع مضرة.

ويستوقفك قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فأي علم في أن يقيم الإنسان على عبادة صنم ربما صنعه بيده، وهو جماد لا يملك الإرادة فضلاً عن أن ينفع عابده أو يدفع عنه الأذى.

وعلى صعيد الواقع اليوم.. أي علم في أن يستمسك مستمسك بما دل الواقع ونطقت التجربة بفساده، فضلاً عن مخالفته في الأصل لما جاء عن اللّه وعن رسوله عليه الصلاة والسلام.

والحق أن عطاء المعلم القرآني على ساحة المثل، باب عريض من أبواب الخير، نشعر معه أن الآيات تتنزل اليوم غضة طرية، لتعطينا الجواب الشافي عن قضايانا، وتحل بمنتهى الوضوح مشكلاتنا. والأمة مدعوة اليوم ـ وفي العالم الإسلامي متغيرات، وعلى العديد من أقطاره عدوان ظاهر مستعلن شرس أو خفي ماكر مبرح ـ: أن تتخذ من الواقع ـ على مرارته ـ حافزاً جديداً إلى إحكام البناء في ثقافة الفرد وتكوينه، وتنمية قدرته على الحكم وفق سنن اللّه وإعطاء الوقائع أبعادها

وحجمها الطبيعي، كيما يدرك بثقافته الإسلامية والعامة ومعرفته بالواقع أن هذه المتغيرات في العالم الإسلامي لها نتائجها القريبة والمتوقعة، وأن العدوان على أي من بقاع الإسلام يخلف ـ فيما يخلف ـ ألواناً من التعويق للمسيرة الاقتصادية وتنمية قدرة الأمة على متابعة رحلة البناء من أجل التغيير، ناهيك عن الأمور الأخرى والعياذ باللّه.

والآن: والبناء الثقافي الذي نلمح إليه بما يجعل عند الفرد والجماعة من ملكة قادرة على تبين ما هو خطأ وما هو صواب، ويزيل الغشاوة ـ بإذن اللّه ـ عن تلك الأبصار التي عانى أصحابها من عقدة أعداء الحق في حضارتهم وثقافتهم: كم نتمنى أن يعود الجانحون، ويستيقظ الغافلون.

مرة أخرى: نريد ونحن نيمم الوجوه شطر البناء المتكامل في المجتمع، وتنمية استقلال الأمة الذاتي فيما تريد: وفيما لا تريد: أن نفيد من عطاء المعلم القرآني ونجنب الجيل ما نبّه إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أجل لو كانوا يعلمون، وإذا علمنا بحق وأخلصنا: قضينا ـ بإذن اللّه ـ على عوامل التعويق والهدم، وأكرم بما يترتب على ذلك من عثرات!.

المثل القرآني.. والبناء

«وما يعقلها إلا العالمون»

«٤»

لم يقف الأمر في المثل الذي عرضنا له من قريب عند ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنا نقرأ بعد هذا في ضوء المعلم القرآني على ساحة المثل قوله تعالى في الآيتين الحادية والأربعين والثانية والأربعين من سورة العنكبوت نفسها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٢-٤٣].

إن أولئك المشركين لا يعلمون، ولكن اللّه يعلم ما يدعون من دونه من شيء، وهو الغالب على أمره، الحكيم فيما رضي لعباده وشرع لهم، يضع الأمور في مواضعها دون وكس ولا شطط.

وفي الآية الأخيرة ـ كما يلاحظ ـ دعوة للتبصر بالأمثال القرآنية التي يضربها اللّه للناس كي تكون دليل العلم: أن يعقلها الناس ويدركوا مراميها القريبة والبعيدة.

ومن إعجاز القرآن: أنه يستعلي على حدود الزمان والمكان، فقبل أربعة عشر قرناً يضرب اللّه مثل بيت العنكبوت ـ في ضعفه وانتقاء قدرته على مقاومة أي شيء ـ لأولئك الذين يتخذون لله الأنداد يتعبدون أصناماً لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً، وتنظر اليوم فترى كأن القرآن يتنزل ـ مذكراً منذراً ـ على واقع يتنافى مع الوجود الذاتي للأمة في كثير من الأحيان.

وإذا كان القرآن في معالمه الغزيرة بالعطاء غير المحدود بالزمان والمكان والأقوام كذلك، فإن من حق القرآن على الأمة أن توظف هذا العطاء بمنهجية وموضوعية على ساحات البناء، وبخاصة في طريقة التفكير ومحاكمة القضايا

التي يطرحها الواقع. وأنت ترى أن التعبير القرآني جاء بالحصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ليشُدَّ أبناء الأمة وأجيالها إلى أن يعقلوا تلك الأمثال ولا يكون ذلك إلا بمزيد من المعرفة وصلة بالعلم.

وليس من المغالاة أن نقرر أن كل جوانب البناء في المجتمع، ما كان منها على صعيد الفكر أو التنمية الاقتصادية الاجتماعية والبشرية تفتقر إلى تبين الطريق، وأن لا يقع العاملون في تهلكة الجهالة أو اللامبالاة، أو ما يكون من وضع الأمور في غير مواضعها، والمخالفة عن سنن اللَّه، الأمر الذي قد يوقع ـ لا سمح اللَّه ـ فيما دلت عليه أبعاد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ألا وإن مقتضى النظرة العلمية الفاحصة أن يتحوَّل في النفوس معنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ إلى إدراك بعيد المدى لقيمة المثل في بناء الفرد والمجتمع، والحجم الكبير الذي يعطيه المعلم القرآني للعلم الذي يمكِّن أصحابه من أن يعقلوا ما أراد اللَّه لهم من الخير حين ضرب لهم الأمثال. واللَّه الموفق بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

obeikandl.com